

تحت ركام الجثث

محسن عتيق خان / الهند

ما إن بدأ هارش يفك حزام الكفن، حتى سمع همسات وأصوات أقدام خافتة، ففزع ورفع رأسه من القبر قليلاً ليرى ماذا يحدث، فترأى له رجلان يتحدثان فيما بينهما بصوت خافت ويدفعان عربة صغيرة بين القبور المتناثرة على ضفة النهر، ربما كانا قد أوقفا سيارتهما على الشارع العام الذي بني على الحاجز وفصل بين المدينة ونهر غانغا. كان هارش مازال يلهث، فقد قضى حوالي نصف ساعة في حفر هذا القبر في هذه البيئة المرعبة الموحشة حيث لا تُرى على هذه الضفة إلا قبور متناثرة على مدى البصر.

صارت أصواتهما أوضح قليلاً إذ كانا يقتربان منه رويدا رويدا، فأصغى إليهما:

- ما هو المجموع الكلي لعدد الموتى اليوم؟

- خمسة عشر موتاً بسبب كوفيد ١٩.

- وما هو عدد الموتى في البيان الصحفي؟

- ثلاثة أموات فقط.

- ثلاثة فقط، لِمَ هذا الفرق؟

- سلطات الولاية لا تريد أن يطلع الناس على العدد الحقيقي للموتى.

- هل هذا يحدث كل يوم؟

- نعم، يحدث كل يوم.

- ماذا، لو أخبرناهم بالعدد الحقيقي؟

- ستتخذ إجراءات ضدنا، مثلاً، قد تقبض الشرطة علينا بتهمة الكذب أو الإساءة إلى سمعة الحكومة وبالتالي قد تقوم الحكومة بإلغاء ترخيص المستشفى.
- لماذا لا نسلم جثث الموتى لأقربائهم؟
- هذا ممنوع من جانب السلطات، لأنه يفضح عدد الموتى الحقيقي.
- هل هذا يحدث في جميع المستشفيات؟
- نعم، في جميع المستشفيات، ألا ترى هذه القبور المتناثرة على هذه الضفة.
- آه، أتذكر، لم يكن هناك حتى قبر واحد قبل ثلاثة شهور.
- ربما أتيت معي إلى هنا لأول مرة. هناك في كل حفرة جثث عديدة.
- لماذا نلقي هذه الجثث في الحفر، ألا يمكن أن نحرقها حسب تقاليدنا؟
- تقاليدنا نحن الهندوس، هه، من يراعي التقاليد خلال هذه الجائحة التي حصدت مئات الألوف من البشر في أيام معدودة، فمحارقنا مكسمة بالجثث، والنار لا تخمد فيها على مدار الساعة في هذه الأيام. ألم تسمع عن مئات الجثث التي طفت على سطح ماء نهر غانغا تنقض عليها النسور والغربان وتنهشها الكلاب؟ لقد تجرد الناس عن المبادئ وأصبحت كرامة الإنسان مهدورة.
- ومن ألقاها في النهر يا ترى؟
- لست أدري، ربما لم ترد المستشفيات الأخرى أن تتكبد عناء حفر القبور، فألقت الجثث في النهر، أو ربما عجزت المحارق عن حرقها لكثرة عدد الموتى، أو ربما خذلت بعضها عائلاتها، ولا يخلو الأمر من احتمالات كثيرة..
- قف، انظرها هنا، يبدو أن أحداً حفر هناك قبراً جديداً ولم يوار عليه التراب بعد...

- أي نعم، ربما ذهب ليأتي بمزيد من الجثث، تعال نلقي هذه الجثث فيه ونواري التراب عليه.

سمع هارش أحدهما يقول هذا فخاف على نفسه واستلقى بجانب جثة القبر لكيلا يراه أحدهما وخيّل له أن سارقاً يتخفّى من سارق آخر، وفي أثناء دقيقة واحدة بدأت الجثث تتساقط عليه، وعندما توقفا عن إلقاء الجثث، شعر هارش كأنه يرنح تحت ركام الجثث، وسيموت اختناقاً لو بقي هناك بضع دقائق أخرى، ثم سمع أحدهما يقول:

"ممكن نلقي فيه مزيداً من الجثث، ثم نواريهم التراب لاحقاً."

انتظر حتى خفتت أصواتهما ولم تعد تبلغ أذنيه، وعند ذلك حاول بكل جهد أن يخرج من هذه الحفرة، وبذل كل ما في وسعه لإزاحة الجثث عن نفسه إذ أن خوف أن يُدفن حياً في قبر ملاء بطاقة استثنائية، فخرج منه لاهثاً منهكاً، ومبللاً بالعرق، واختفى وراء قبر آخر.

وفي الحقيقة، لم يكن هارش سارقاً محترفاً، فلم يسرق قط في حياته فضلاً عن سرق الكفن، ولم يخطر بباله قط في الماضي أنه سيأتي يوم يضطر فيه لسرق الكفن، ولكن الجوع.....، فمئذ أغلقت الشركة التي كان يعمل فيها في العام الماضي خلال الإغلاق التام، لم يجد عملاً آخر، فصرف كل ما كان قد ادخر، وباع حتى حلى زوجته واحدة تلو أخرى، والآن لم يبق لديه شيء يبيعه. ولا يمكن أن يجد العمل خلال هذا الكساد الكبير والإغلاق المتقطع المستمر، فماذا يفعل؟ ولا يدري كيف خطرت بباله فكرة سرق الكفن من قبور هذه الضفة التي بدأ الإعلام يتحدث عنها منذ يومين.

ولما نزل من الشارع العام إلى الضفة، خفق قلبه بشدة، وشعر بنوع من الهلع، فلم تكن هذه الضفة لهذا النهر المبارك مخيفة وموحشة قط كما بدت له اليوم والتي هي الأخرى تحولت إلى مقبرة واسعة لا حدود لها يحفها الخوف والرعب من كل جهة، ولكن بطش الجوع جعله يتغلب على كل مخاوفه. أوغل في

الضفة إلى النهر حتى لا يستطيع أحد أن يراه من الشارع العام، وبدأ في حفر قبر، وعندما نجح في إزالة التراب عن الجثة بعد جهد جهيد، لاح له الكفن، وبينما كان يجاهد ليسكت ضميره، ويبرر السرقة قائلاً لنفسه: "إن هذا الكفن سيتحول إلى التراب ولا يفيد شيئاً، ماذا لو استفاد منه وملاً بطنه ووفر الطعام لأولاده"، لقد أفسد الرجلان خطته. ولكنه كان قد عقد العزم على أنه لن يعود من هنا صفر اليدين كائنا ما كان، فاستراح قليلاً حتى تغلب على أنفاسه، وعندما تأكد من مغادرة الرجلين بسيارتهما إلى المستشفى ليأتيها بمزيد من الجثث، قام من مكانه بنشاط جديد وأسرع إلى ذلك القبر مرة أخرى، وتمكن من جمع ثمانية أكفان من قبر واحد، وقال لنفسه: "هذا يكفيني لليوم" ثم ألقى نظرة وأراد أن يحصي عدد القبور ليحسب حساباً عن كمية الأكفان التي سيحصل عليها في الليالي القادمة ولكن لم يستطع، فليست هناك إلا قبور على طول الضفة وعرضها، فنفض فكرة إحصاء القبور عن رأسه، ورفع حزمة الأكفان، ومضى في طريقه إلى بيته.

ولما وصل إلى البيت وجد زوجته وأبنائه مستغرقين في نوم عميق، فصعد السلم إلى السطح خلست ودخلت في المغطس، وبذل نحو ساعة في غسل الأكفان، وشطفها، وتنظيف بقعها، ونشرها على الحبال للتجفيف. ثم اغتسل وجعل يفرح جسمه فرحاً كأنه لا يريد أن ينظف جسمه من جرائم كوفيد ١٩ فحسب، بل من لوث الأكفان أيضاً. نزل من على السطح واستلقى على بعد شبر من زوجته وأبنائه وأراد أن ينام ولكن النوم خذله وربما تأخر عنه لتركه يتحسر على فعلته أو يُطمئن نفسه بدلائله الزائفة، فكان هناك صراع شديد في قرارة نفسه، فحيناً شعر ضميره يخزه، وحيناً آخر وجد عقله يبرر صنيعه، واخيراً عندما بدأت الطيور تتغرد وتؤذن بحلول الفجر، بدأ النوم يغشى عليه رويداً رويداً.

صفر صمام الأمان في القدر فأيقظه من نومه، وعندما لاح له الشمس من النافذة انتبه بأنه علا النهار، فأسرع إلى السطح وجمع الأكفان المغسولة في حزمة ثم جلس مع أبنائه ينتظر زوجته التي كانت تقسم الطعام في الصحون وهي تهمهم، وعندما مدت إليه صحنه قالت له: "لم يكن في البيت شيء نأكله، فشكوت إلى أبي وبكيت حتى ترحم علينا وأرسل لنا الرز والبطاطس رغم سوء أحواله المالية. عليك أن تجد عملا وإلا سنموت جوعا." سمع ما قالت زوجته بهدوء ثم أجاب متبسماً "لا تقلقي، قد وجدت عملا سيغنيننا عن الجوع."

